تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الخامسة • العدد ٥٥ • أيار (مايو) ١٩٨٣م • الموافق شعبان ١٤٠٣هـ.



الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥-١٩٢٧

د. ادمون ربّاط

تعريب: د. محمّد المجذوب

شكلت الثورة الوطنية التي اندلعت في سوريا، في عام ١٩٢٥، الفترة الأشد عنفا في تاريخ النضال الطويل الذي خاضه الشعب السوري ضد الانتداب الفرنسي، غداة معركة ميلسون التي حدثت في ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٢٠، على أبواب دمشق، والتي كان من نتائجها المباشرة سقوط المملكة الهاشمية التي أسست على أثر انهيار الامبراطورية العثمانية.

وبعد محن وتضحيات لا حصر لها، استطاعت سوريا، في عام ١٩٤٣، أن تنال استقلالها، وتحرر بعد ثلاث سنوات، أرضها من كل احتلال أجنبي. وهذا يعني أن ثورة عام ١٩٢٥ قد أصبحت في ذمة التاريخ. ولكنها، مع ذلك، تمثل صفحة مثيرة جدا تستحق الذكر. ومن هنا تتجلى فائدة العودة إليها ومحاولة سد فجواتها في ضوء بعض وثائق العصر.

(الحلقة الأولى)

أولا ـ قضية كاربييه (Carbillet)

تعود الجذور المباشرة للثورة إلى هذه القضية. وقد نشأت الثورة، في عام ١٩٢٥، في منطقة حوران، حيث شكلت فرنسا، وهي الدولة المنتدبة، في عام ١٩٢١، وبشكل اعتباطي، كيانا سياسيا تحت إسم: **الحكومة الذاتية لجبل الدروز**. وامتدت الثورة، شيئا فشيئا إلى دمشق لتشمل، فيما بعد، كل الأراضي السورية تقريبا.

وحملت وفاة سليم باشا الأطرش، حاكم جبل الدروز، النقيب (كاربييه)، مستشاره الإداري، على أن يحكم مكانه، بالنيابة أولا، ثم، في أواخر

سلطان باشا الأطرش



□ سلطان باشا الأطرش قائد الثورة السورية (اول صورة فوتوغرافية له).

عام ١٩٢٤، بالتعيين من قبل مجلس «الجبل» الذي تم انتخابه آنذاك بالاقتراع العام على درجتين. وصدر عن المفوض الفرنسي السامي، الجنرال ويغان (Weygand)، مرسوم بالتصديق على هذا التعيين. وبعد ستة أشهر طالب الدروز الذين عيل صبرهم باستدعائه.

إن الازدهار المادي الذي تحقق بفضل إدارة النقيب (كاربييه) أمر لا ينكر، فنشاط هذا الضابط الفرنسي لم يهمل شيئاً. لقد اهتم بالطرق، والمدارس (الفرنسية)، وضبط الإدارة، والإصلاحات القضائية واقتصاديات الموازنة. غير أن جميع هذه الاصلاحات لا يمكن أن تتم دون دكتاتورية ثقيلة ومتشددة تولد استياء خفياً لدى السكان. وإذا كانت أهداف الحاكم جديرة بالثناء فان الوسائل التي استخدمت لبلوغها قد أثارت، بحق، الاحتجاج والمقاومة، فالمجهود الذي طلب من السكان تقديمه، لتنفيذ الأشغال ذات المنفعة العامة، كشق الطرق وحفر القنوات، التي كان «الجبل» في أمس الحاجة إليها، «قد أحدث شيئا من الاستياء لدى الجماهير. فلم يكن بالامكان تنفيذ هذه الأشغال بالاعتماد فقط على موارد ميزانية لا تتجاوز وارداتها الثمانية ملايين من الفرنكات. ولهذا كان من الضروري إنجاز القسم الاكبر من هذه الأشغال بمساعدات يقدمها السكان بجوار قريتهم. وبالنسبة إلى بعض الأشغال فقد طلب منهم بذل مجهود كبير»[١].

وللقيام بهذه المهمة، كان يجب أن يكون هناك رئيس كالنقيب (كاربييه). «ان استبداديته كانت الشرط الضروري لتحقيق تقدم سريع في بلد كهذا البلد: ان وكلاء الانتداب عليهم غالبا أن يختاروا بين ممارسة سلطة مباشرة وفعالة تتدخل في كل شيء، ولكنها تحصل على نتائج، وبين سياسة متساهلة ترى استمرار الفوضى... التي ترتكبها سلطات محلية نحرص على عدم ازاحتها... ان حكومة جبل الدروز قد اختارت السياسة الأولى وتمادت فيها، ولكن خطأ هذه السياسة أنها كانت تفرض على من يتبعها التخلي عن المناهج الخاصة الملائمة للانتداب... وكان من سيئات هذه السياسة، ذات القصد السليم، انها كانت خطرة... فالحاكم المقتنع بأنه كان يعمل لمصلحة الجمهور كان يضطر بحرارة القمع، إلى جعل نفسه مرهوبا...»[٢].

ان هذه الأسطر الرسمية، الصادرة عن الحكومة الفرنسية، تدين في الحقيقة، تحت غطاء

من الاعتدال الدبلوماسي، سياسة النقيب (كاربييه). وهي تبرر، خصوصا، شكاوى الدروز، ولا سيما تلك الشكاوى التي كانوا يوجهونها ضد الموظفين المتأثرين بعقلية سيدهم ومناهجه. «وكان لدى مساعديه من سكان البلد... ميل إلى التجاوزات، ففي حالات كثيرة كان رجال الدرك، بلا شك، قساة، واستطاع المعلمون الإفادة. من العلاقات التي كانت تربطهم بالحاكم لتحقيق مكاسب على حساب الشعب»[٣].

فمن المؤكد، أن النقيب (كاربييه) قد أساء استعمال دكتاتورية واقعية اجازتها وحمتها القوة الفرنسية. والسلطات الفرنسية قد اعترفت، في النهاية، بمعظم هذه التجاوزات التي قد يصعب علينا تعدادها. وفي العرائض المرفوعة إلى المقدم تومي ـ مارتان (Tommy-Martin)، الذي أرسل إلى «الجبل» ليحل محل النقيب رينو (Reynaud)، الحاكم بالنيابة، «ذكر عدد من التهم الواضحة والأساليب الجائرة والقسوة المتناهية، المنسوبة إلى الحاكم الذي كان في إجازة وإلى عدد من مساعديه. وفتح تحقيق أثبت أنه إذا كان بالإمكان تبرير عدد من هذه الاتهامات، فان بعضها، على الرغم من المبالغة فيه، لم يكن دون أساس»[٤]. وهذه الوقائع أضفت المشروعية على احتجاجات الدروز وجعلت من المعقول تحقيق رغبتهم في تغيير المسؤول عن شؤونهم.

ومنذ الأشهر الأولى لعام ١٩٢٥، ظهر الاستياء بوضوح، دون خشية من التدابير الانتقامية. «ولم يتسع الا ابتداء من اللحظة التي خفت فيها سطوة هذا القائد (كاربييه)، الذي أجبر، في ٢٣ أيار (مايو) ١٩٢٥، على أخذ إجازة استجمام كان في أشد الحاجة إليها. ورفعت إلى النقيب (رينو)، الضابط المكلف بأن ينوب عنه، عرائض ممهورة بتواقيع عديدة، تطالب باستبدال الحاكم»[٥].

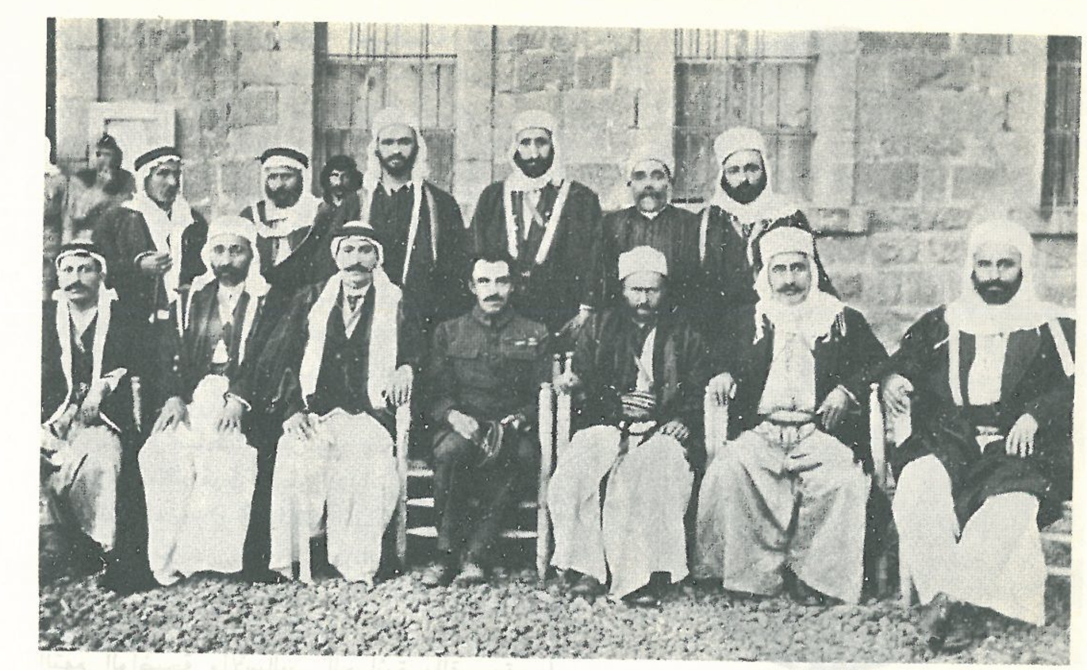
والحملة التي برزت بمثل هذه الضخامة، وأدت إلى إجماع «الجبل»، كان لها طابع من الخطورة الحقيقية حملت النقيب (رينو)، في ٢ حزيران (يونيو)، على رفع تقرير إلى مندوب المفوض السامي في دمشق، وهو رئيسه الأعلى، وصف فيه الوضع بموضوعية وأشار إلى كراهية القادة والشعب لسلفه. وقد ورد فيه «أن هناك



متعب بك الأطرش

حملة موجهة ضد النقيب (كاربييه)، حملة لا يشارك فيها فقط أفراد عائلة الأطرش الذين أعلنوا المعارضة في الفترة الأخيرة، بل تقوم بها كذلك الغالبية العظمى من العائلات الدرزية الأخرى... إن أفراد عائلة الأطرش الذين مثلوا، إفراديا، أمام الحاكم الجديد بالنيابة، للاعراب له عن اخلاصهم للدولة المنتدبة... قد طلبوا مني الاستماع اليهم بطريقة كفيلة، كما قالوا، بإزالة سوء التفاهم الذي كان قائما بينهم وبين المندوب في دمشق والجنرال المفوض السامي...». وأضاف النقيب (رينو) قائلا بأنهم أعلنوا ما يلي: «لاظهار وفائنا وخضوعنا... فإننا لن نطالب بحاكم وطني... اننا نرغب في أن يكون لنا حاكم فرنسي، ولكن بشرط ألّا يكون النقيب (كاربييه)...». «ومن المناسب، في الوقت الراهن، تكليف أحد مندوبيكم ـ المساعدين مهمة القيام بتحقيق هنا. وهذا التحقيق، في رأيي، ضروري، لأنه يبدو لي أن الوقائع التي كان لي شرف سردها لكم من شأنها تعقيد عملنا المقبل في «الجبل» بشكل غريب، إذا تجاهلنا اليوم رغبات جبل الدروز...»[٦].

وفي ٢ حزيران (يونيو)، تلقى المفوض السامي



□ كابتن كاربييه مع المجلس الدرزي.

برقية «موقعة» من ٢٤ وجيها من وجهاء «الجبل» يطلبون فيها مقابلته «لدعم النقيب (رينو)، الذي عرف، كما قالوا، كيف ينعش من جديد تعلقنا بفرنسا ويبدد سوء التفاهم». ولم يرد المفوض السامي أبدا على هذا الطلب.

وفي اليوم التالي بالذات، استقبل النائب الفرنسي أوغست برينيه (Auguste Brenet)، الذي كان مارا بدمشق، وفدا درزيا يضم ٣٨ شخصية تمثل ١٧ عائلة من أكبر العائلات في «الجبل»، وسبقه أعضاء من المجلس التمثيلي في السويداء، وواحدا من الزعماء الدينيين الأربعة الذين كانت لهم الهيمنة على عقل الدروز. واستمع إلى شكاواهم ووعد بنقلها إلى المفوض السامي.

وفي ١٥ منه، توجه هذا الوفد الجليل إلى بيروت. غير أن المفوض السامي، الجنرال ساراي (Sarrail)، رفض مقابلته[٧]، فغادر الوفد بيروت مهانا غاضبا.

وبعد ثلاثة أيام، رفع تقرير ثان من النقيب (رينو) إلى دمشق لدعم مطالب الوفد الدرزي. وقد ورد فيه «أن هناك حركة عامة تحملنا على توجيه أعظم الانتباه إلى الأحداث»[٨].

وأخيرا، وفي ٢٧ حزيران (يونيو)، طالبت رسالة جماعية كذلك، موقعة من الزعماء الذين ظلوا حتى الآن على الحياد، باستبدال (كاربييه).

وجرت محاولات أخرى، باشرها دروز لبنان بزعامة الأمير فؤاد أرسلان، ولكنها أجهضت أيضا.

وجميع هذه الجهود كان الغرض منها، حتى الآن، وإلى حد كبير، استبدال (كاربييه). وحينئذ ظهر في الرأي العام الدرزي، نتيجة رد الفعل، تيار أكثر جذرية. وكان وفد أتى دمشق، في أيار (مايو)، للترحيب بالمفوض السامي، بعد رحيل الحاكم، قد تجرأ وطالب بتطبيق اتفاق عام ١٩٢١، الذي كان ينص على التزام الدولة المنتدبة بتسمية حاكم درزي «للجبل». ولكن الجنرال (ساراي) أعلن عدم اعترافه بصحته. وقال الدروز: «إن الظروف تقودنا الآن إلى مطالبتكم بالحقوق التي تمنحنا إياها معاهدتنا». وأجابهم الجنرال (ساراي): «معاهدتكم!! معاهدتكم!! قبل كل شيء، إنها لم توقع الا من قبل واحد من زعمائكم الدينيين». ورد المندوبون الدروز: «طبعاً، ان هذا الزعيم كان منتدبا من قبل الآخرين، كما كان السيد كيكس (Caix)

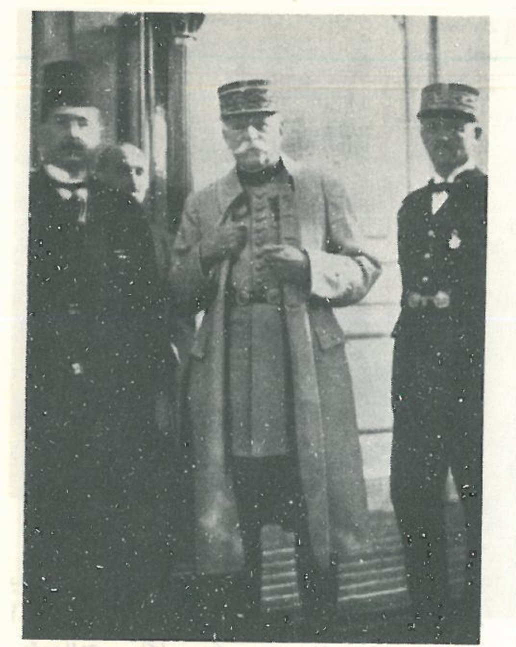
(الذي وقع المعاهدة عن الجانب الفرنسي) منتدبا من قبل الزعماء الفرنسيين. وبالنتيجة، فإنه لم يكن بإمكان المندوب الفرنسي وضع توقيعه في أسفل وثيقة كهذه ما لم يدقق في صلاحيات مندوبنا»[٩].

وبعد عدة أيام، أوضح الجنرال، في رسالة إلى مندوبه في دمشق، أن اتفاق ٤ آذار (مارس) ١٩٢١ كان لاغيا، لأن «واحدا فقط من الزعماء الدينيين الدروز الأربعة قد وقعه»، وألمح إلى المقابلة التي عقدها مع الوفد الدرزي في دمشق وقال: «لقد استنتجت أن هذه الورقة ليس لها الا قيمة تاريخية، وقلت إنهم، إذا لم يعتبروها لاغية ودون مفعول، سيثيرون شغبا ويعرضون أنفسهم للمعاملة كمتمردين»[١٠].

ومع ذلك، وللحقيقة، فهذه المطالب لم تبلغ أبدا من الحدة ما بلغته المطالب الرامية إلى استبدال النقيب (كاربييه). وكان بالإمكان تهدئة اضطراب «الجبل» بالإعلان، أو على الأقل بالوعد، باستبداله النهائي. غير أن كل الوسائل اخفقت في التغلب على إصرار المفوض السامي على الاحتفاظ برجل في مكانه بعد أن أجمع مساعدوه على اعتباره خطرا على السلام العام.

واتسعت الحركة. و «في بداية تموز (يوليو)، أشار الوفد الفرنسي في دمشق إلى الخطورة التي يمثلها الغليان في المنطقة الدرزية. وبدا له أن الحركة، سواء أكانت مبررة أم لا، تستحق انتباها رصينا، فقد امتدت بالفعل، إلى أوساط لا تخضع لعائلة الأطرش (المتهمة بالتحريض عليها)، كما أثبتت ذلك عريضة موجهة في ٨ تموز (يوليو) إلى المفوض السامي، تحمل مئة من الأسماء المعروفة في (الجبل)»[١١].

ورفض المفوض السامي الرضوخ. وبلغ الهيجان في «الجبل» ذروته. وفي ٣ تموز (يوليو)، وقع في «الجبل» حادث خطير أثار الخشية من حدوث اضطرابات قريبة، فقد تعرض الملازم موريل (Morel)، أحد المعاونين المباشرين للحاكم، للضرب واطلاق النار عليه. وبفضل نفوذ النقيب (رينو) أعيد الهدوء. ولكن مدينة السويداء، التي كانت مسرحا لهذه المناوشات الأولى، عوقبت بغرامة مقدارها ٢٠٠ ليرة ذهبا.



□ المفوض السامي «سراي» في دمشق.

ومع ذلك، فقد ساء الموقف وساد شعور بأن شرارة الحرب تلوح في الأفق. غير أنهم في بيروت استمروا في اعتبار هذا الهيجان، الذي كانوا يقللون من شأنه، عملا يرتكبه بعض المشاغبين الذين لا تأثير لهم في الجماهير، والذين أظهرت الحكومة المؤقتة تجاههم تسامحا مشجعا إلى حد بعيد.

وبعد أن أصبح النقيب (رينو) مشبوها، حل محله المقدم (تومي ــ مارتان)، رئيس مصلحة الاستخبارات في دولة سوريا. وقد وصل السويداء، في ١٦ تموز (يوليو)، وسط هتافات السكان المقتنعين بأن هذا التغيير يشكل التفاتة كريمة من جانب الدولة المنتدبة التي سيكون لمبعوثها الجديد مهمة التحقيق على الطبيعة في التهم الموجهة إلى (كاربييه)[١٢]. وبذلك أصبحت العرائض التي رفعت والوفود التي استقبلت عديدة وصلبة في اتهامها لهذا الأخير، وأصبح إجماعها مقلقا إلى درجة جعلت المقدم (تومي ــ مارتان)، الذي اعتبر الوضع خطيرا، يعرب لرؤسائه في بيروت عن هذه الخطورة ويحدد، في نفس الوقت، التدابير الفورية التي يجب اتخاذها لتلافي التمرد المنذر بالخطر[١٣].

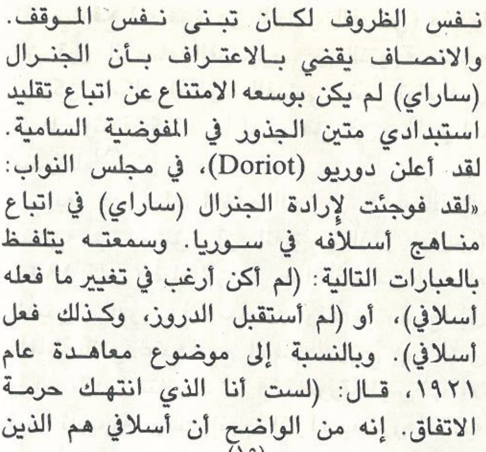


□ حمد بك عامر احد زعماء الثورة البارزين.

وعلى الرغم من هذه البوادر التي كانت تنبىء بانفجار قريب، فقد صدر عن الجنرال (ساراي) أمر موجه إلى المندوب في دمشق يعلن، باقتضاب، «بأن النقيب (كاربييه) سيعود إلى مركزه». ويبدو أن هذا الأمر كان ينطوي على رغبة في أن يبقى بلا جواب. وأمر المفوض السامي باعتقال الشيوخ الخمسة البارزين في عائلة الأطرش، معتقدا أن هذا كفيل بوضع حد لدسائس المشاغبين. «ولذلك، لجأ إلى طريقة اعتبر بول بانلو فيه (Paul Painlevé)، رئيس مجلس الوزراء آنئذ، أمام لجنة الشؤون الخارجية، أنها تنطوي على نية سيئة ليست من عادات فرنسا»[١٤].

واستدعي الخمسة من آل الأطرش إلى دمشق، بحجة السماح لهم بشرح مطالبهم. ولم يحضر إثنان منهم: متعب وسلطان باشا. الأول ادعى المرض، والثاني، وهو أكثر الجماعة تمرسا بالقتال، لم يقدم أي اعتذار. والثلاثة الآخرون: نسيب وحمد وعبد الغفار، الذين وصلوا دمشق، أرسلوا فورا إلى تدمر واعتقلوا.

وهذا التصرف العنيف لم يكن الا نتيجة منطقية لسياسة طويلة من التسلط العصبي والغيور، الذي لم يسمح الانتداب دائما بالانطلاق منه، منذ حلوله في سوريا. والجدير بالملاحظة أن الجنرال (ويغان) هو الذي عين النقيب (كاربييه) وسانده. وهذا ما فعله، في تلك الفترة، الجنرال (ساراي). ولو وضع سلفه في



نفس الظروف لكان تبنى نفس الموقف. والانصاف يقضي بالاعتراف بأن الجنرال (ساراي) لم يكن بوسعه الامتناع عن اتباع تقليد استبدادي متين الجذور في المفوضية السامية. لقد أعلن دوريو (Doriot)، في مجلس النواب: «لقد فوجئت لإرادة الجنرال (ساراي) في اتباع مناهج أسلافه في سوريا. وسمعته يتلفظ بالعبارات التالية: (لم أكن أرغب في تغيير ما فعله أسلافي)، أو (لم أستقبل الدروز، وكذلك فعل أسلافي). وبالنسبة إلى موضوع معاهدة عام ١٩٢١، قال: (لست أنا الذي انتهك حرمة الاتفاق. إنه من الواضح أن أسلافي هم الذين انتهكوا حرمته قبلي)»[١٥].

وكان الفرنسيون الموجودون في سوريا يرون، للدفاع عن هيبة أسيء فهمها وكثر الحديث عنها، إن الكلمة الأخيرة يجب أن تبقى للدولة المنتدبة. وهذا الخط من السلوك قد اتبع دائما. ومن وجهة النظر الفرنسية، فان الإهمال الوحيد الذي ارتكبه الجنرال (ساراي) يكمن في أنه تسرع في الحكم على مشاعر السوريين تجاه دولة الانتداب. وهنا أيضا، وعلى غرار جميع الفرنسيين آنذاك، فان كل ما فعله هو الإيمان باسطورة نداء سوريا لفرنسا. وهكذا عرض نفسه للمفاجأة في وقت كانت فيه سوريا، بعد خمس سنوات من الاحتلال العسكري، الدقيق والثقيل، مجردة من الفرق العسكرية اللازمة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الظروف المعنوية والسياسية والاقتصادية للبلد، فقد كان على الثورة أن تنفجر في هذه اللحظة. وقد أشعل (كاربييه) الحريق الذي كان كامناً، وخصوصا في جبل الدروز، ذلك المركز السوري للمقاومة الأشد عنفا، ومن هنا الهبت جذوة الحرب سوريا الوسطى، حول دمشق، مركز العروبة الذي لا مثيل له، والنقطة الحساسة للإسلام. وقد تم ذلك بسرعة ما زالت مستعصية على التعليل إذا اكتفينا بالأسباب السطحية التي قدمتها آنذاك الصحافة الفرنسية، كطموح بعض الزعماء، أو ما سمي بالتحريض الخارجي.

ومع ذلك فان الزعماء الدروز بذلوا الجهد، حتى آخر لحظة، لكي تبقى إرادتهم سلمية. ولكن اعتقال الكثيرين من رفاقهم جرح كرامتهم وأجج



□ الأمير سليم الأطرش مع قوات الثورة.

شعلتهم القتالية، الموروثة عن الأجداد، التي ظلت خامدة لفترة من الزمن. والمسؤولية تقع، دون ريب، على ممثلي الانتداب في بيروت[١٦]. وقد أطلق ضابط فرنسي صرخة قبل المعركة فقال: «لقد خضت الحرب كلها، ولم يعد يعنيني منها إضافة مسألة أو إنقاص أخرى، ولكنني في هذه المرة أشعر بضيق في قلبي لأن هذه الحرب كان بالإمكان تحاشيها. ثم إن هؤلاء الناس يشتكون من تجاوزات حقيقية... ويطلبون الاستماع إليهم. ألم يكن ذلك حقهم؟ لقد أغظناهم. وعندما ندرك ذلك نجد من القسوة إطلاق النار على عدونا. آه، لو كانوا في فرنسا يعلمون ما يجري هنا»[١٧]...

ثانيا ـ الحرب

وفي اليوم التالي لاعتقال الزعماء والدروز صادف النقيب نورمان (Normand)، الذي لقي مصرعه بعد ثلاثة أيام وكان محبوبا من الدروز لعدالته وتجرده، أحد السكان في شوارع السويداء، فسأله عما يجري، فرد عليه قائلا: «لقد القوا القبض على أسيادنا». وأجابه النقيب (نورمان): «هذا ليس ممكنا، فالمفوض السامي جنرال في الجيش الفرنسي، وليس مؤهلا للقيام بعمل من هذا النوع».

والمؤسف أن الدرزي كان يجهر بالحقيقة. ولم يكد الخبر المحزن ينتشر حتى أعطى إشارة الهيجان العام في «الجبل» ضد دولة الانتداب. وتسلم سلطان باشا الأطرش زمام القيادة.

وأذاع على الشعب السوري بيانا جاء فيه ما يلي:

«إننا لم نطلب من الظالم الا استبدال حاكم فرنسي غير انساني بحاكم آخر من جنسه. ولم يكف أن أمنيتنا لم تستجب، بل أن مندوبينا قد طردوا كالخراف، واعتقلوا ظلما وبهتانا... لقد قضي الأمر. وحربنا هي حرب مقدسة. لقد شهرنا السيف ولن نعيده إلى غمده الا بعد تحقيق آمالنا، وهي:

١ ـ الاستقلال الكامل لسوريا العربية، الواحدة وغير المجزأة، بساحلها وداخلها.

«٢ ـ تعيين حاكم وطني وإجراء انتخابات حرة لاختيار جمعية تأسيسية من أجل وضع النظام الأساسي[١٨].

«٣ ـ إجلاء جيش الاحتلال الأجنبي عن البلاد وإنشاء جيش وطني للحفاظ على النظام والأمن.

«فإلى السلاح... والله معنا!

«عاشت سوريا المستقلة!».

وفي ١٧ تموز (يوليو)، شوهدت تجمعات

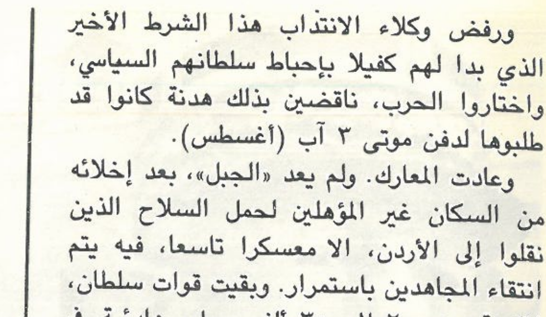
مقلقة، واضطرت إحدى الطائرات التي كانت تقوم بمهمة استطلاعية إلى الهبوط، تحت الرماية الدرزية، في **امتان**، على بعد عدة كيلومترات من الحدود الفلسطينية. وحاصر القرويون جنود الاحتلال، ولم ينقذهم الا زعيم شاب من آل الأطرش شملهم برعايته. وبعد يومين، احتل سلطان باشا، دون أن يلقى مقاومة، مدينة صلخد، وهي المدينة المهمة الثانية في «الجبل»، وأحرق السراي تلويحا بالعصيان.

غير أن أول هجوم جدي على الجند الفرنسيين لم يحدث الا في ٢١ تموز (يوليو)، وكان ضد النقيب (نورمان) نفسه، الذي كان معروفا من الدروز، فقد توقفت الفرقة التي كان يقودها (بغية انقاذ حياة الطيارين الموجودين في إمتان) في الكفر، وهي موقع مياه استراتيجي في جنوب غربي السويداء. وعرض سلطان عليه التراجع. وعندما رفض القائد، وهو أمر طبيعي، هاجم سلطان الفرقة وأهلكها، فمن بين ١٦٦ رجلا تتكون منهم الفرقة، قتل ٨ ضباط و ١٠٧ جنود في مجابهة جسدية شرسة[١٩].

وفي مساء اليوم الذي وقعت فيه المجابهة، بدأ حصار الثكنة المحصنة في السويداء، حيث لجأت بقية فرقة (نورمان) والحامية العسكرية وسلطات المدينة.

ولفك الحصار عن السويداء، ومعاقبة سلطان، والثأر لقتلى قرية الكفر، شكل، برعاية الجنرال ميشو (Michaud)، الذي كلفه المفوض السامي تسوية هذا «الحادث»[٢٠]، طابور كبير «مكون من جميع العناصر التي أمكن جمعها في سوريا»[٢١].

وعلى الرغم من الرأي المعارض الذي أبداه بعض القادة ممن كانوا أحسن اطلاعا على الحالة السيئة لوحداتهم، فقد تورط الطابور، الذي تكون بانفعال، في معركة «الجبل»، في ٣ آب (أغسطس)[٢٢]. وفي موكب في عين المزرعة، هوجمت قافلته وتكبدت خسائر فادحة. وعندما شطر أفراد الطابور إلى نصفين، وحرموا بذلك من الذخائر، وأرهقوا من قبل الدروز، تقهقروا باتجاه قاعدتهم في حالة مريعة من الارتباك. وأدى قنوط القادة، وهلع الجنود، وجهل الملغاشيين (وهم أفراد الطابور) العاجزين عن استخدام أسلحتهم، والموت البطولي للمقدم (أو جاك)،



نسيب بك الأطرش

وبسالة الدروز وصيحاتهم الغريبة... أدى كل ذلك إلى تحطيم القوة الفرنسية وتحويل التقهقر إلى كارثة. «ولم يعد القادة يعرفون رؤساء الفرق، ولم يعد الضباط يعرفون رجالهم ولا يتحدثون بلغاتهم، ولم يعد الرجال يعرفون ضباطهم ولا يستوعبون أوامرهم»[٢٣].

وكانت الخسائر باهظة، في الرجال والعتاد[٢٤].

إن انحدار طابور (ميشو)، الذي أعقب الفشل المهني الذي حل بطابور (نورمان) جعل من سلطان سيدا مطلقا «للجبل»، الخالي من الفرنسيين، وقائدا بلا منازع للثورة الدرزية. ولكن «يبدو أن هذا النجاح غير المنتظر قد أذهب، بل أفزع، في البداية، كثيرا من الدروز أكثر مما أثار حماستهم... لقد أرادوا ممارسة السياسة، والأعراب عن استيائهم، ولكنهم وجدوا أنفسهم، رغما عنهم، وبالصدفة تقريبا، أمام قطيعة مع فرنسا»[٢٥].

وفورا، بعد ٣ آب (أغسطس)، باشر النقيب (رينو) مفاوضات معهم. وكان الدروز يطالبون بالإضافة إلى العفو العام والشامل، بحاكم وطني منتخب من السكان، وباجتماع جمعية تأسيسية لوضع النظام الأساسي «للجبل».

ورفض وكلاء الانتداب هذا الشرط الأخير الذي بدا لهم كفيلا بإحباط سلطانهم السياسي، واختاروا الحرب، ناقضين بذلك هدنة كانوا قد طلبوها لدفن موتى ٣ آب (أغسطس).

وعادت المعارك. ولم يعد «الجبل»، بعد إخلائه من السكان غير المؤهلين لحمل السلاح الذين نقلوا إلى الأردن، الا معسكرا تاسعا، فيه يتم انتقاء المجاهدين باستمرار. وبقيت قوات سلطان، المكونة من ٢٠ إلى ٣٠ ألف رجل، هادئة في «الجبل» الذي أمسى حرا بعد معركتي الكفر والمزرعة. وقد استحوذت على سلطان، خارج نطاق المواكب المتوحشة، إغراءات كثيرة وفرت له النصر. وكانت الإغراءات تأتيه من شعبه الذي هيجه نضال قصير ومجيد، ومن الدروز الذين كانوا يعيشون خارج «الجبل»، ومن دمشق المضطربة، ومن سوريا الوسطى بكاملها التي كانت تضج بوطنية حدت معركة ميسلون من انطلاقتها دون القضاء عليها.

والثورة، التي كانت درزية حتى الآن، أصبحت سورية. وتلك كانت المرحلة الثانية، الأطول والأعنف. وبعد أن انطلقت من أصول محلية وإدارية في الدرجة الأولى، اتجهت بغتة نحو صيغة وطنية تستمد أنصارها من الشعب، كما تستمدهم من المثقفين والطبقات المالكة... نحو نضال من أجل الاستقلال شبيه بأشكال النضال التي هزت وصدعت، هنا وهناك، خلال السنوات الأخيرة، الهيمنة الأوروبية في الشرق.

وانتشر السيل، بموجات مباغتة، خارج «الجبل»: في الشمال، عن طريق وادي العجم، وهو ممر ذو منحدرات زلقة، تمتد على طوله مجموعة متراصة من القرى الدرزية تصل إلى ضاحية دمشق؛ وفي الشمال الغربي، عن طريق السفح الغربي لجبل حرمون (جبل الشيخ) ووادي التيم حيث يرتبط عشرة آلاف درزي بمجموعات من نفس الطائفة تقيم في المنطقة الجنوبية الشرقية من لبنان (حاصبيا، وراشيا...). «لقد اتسعت الحركة بسرعة... والعصيان، إن لم يشمل كل السكان، فانه شمل على الأقل كل مساحة سوريا الجنوبية»[٢٦].

وخلال شهري آب وأيلول (أغسطس وسبتمبر)، لم تتوقف صفوف الثوار عن

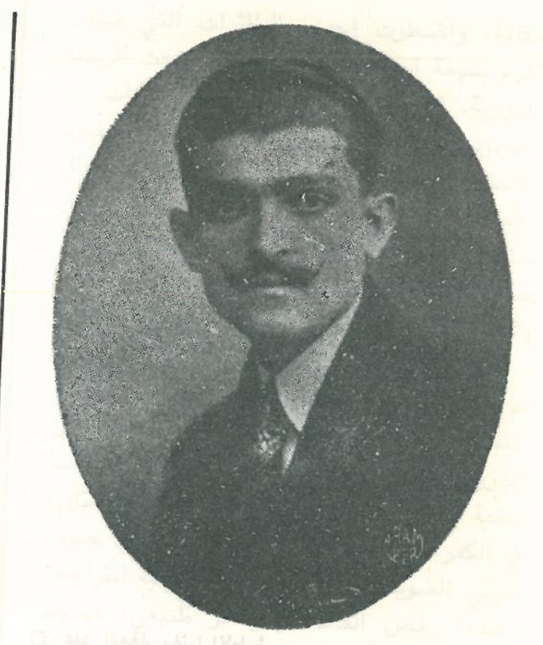


عبد الغفار باشا الأطرش.

التضخم، جاذبة إليها الجبليين في حرمون، والفلاحين في السهل، والعوام في المدن، والطلاب الوافدين من دمشق أو من الجامعات الأوروبية.

وكانت دمشق هدف الثوار. ومنذ ١٤ آب (أغسطس)، هوجمت القرى المحيطة بها من الجنوب. وفي ٢٤ منه، وجه ١٥٠٠ رجل، دون نجاح، أول ضربة ازميل إلى المدينة. وتتابعت، بعد ذلك، الهجمات. وتعطلت المواصلات. وكانت سكة حديد الحجاز، ما بين دمشق ودرعا، على الحدود الفلسطينية، عرضة للهجمات المتواصلة.

وبعيدا إلى الغرب، وحتى القنيطرة، كانت الجماعات المسلحة تنمي نشاطها. وفي الشمال، داخل الحدود اللبنانية، كانت بعلبك، التي يقطن معظمها مسلمون شيعة، في هيجان كامل. وكذلك في الشوف حيث يعيش الدروز، على السفح الغربي من لبنان، وعلى بعد عدة كيلومترات من بيروت، فقد لوحظ وجود تحرك خطير. وكان ثوار «الجبل» على علاقة ثابتة بهذه الأوساط التي كانت تنتظر فرصة لتنتفض. وإلى الشرق من دمشق، كان البدو ينتظرون، جماعات جماعات، ساعة الاشتباك والنهب، بدلا من التوغل في الصحراء مع اقتراب فصل الشتاء. وكان عدد منهم يقاتل إلى جانب الدروز. وقد ظهروا عند



□ حمد الأطرش.

أول هجوم على دمشق. وهكذا انفجرت الثورة، بعفوية وقوة، حول العاصمة، وفي كل مكان.

وخلال هذا الوقت، «اقتصرت التدابير العسكرية على حراسة الخط الحديدي، وقصف جبل الدروز بقنابل الطائرات، وإرسال الكتائب إلى قرى كان ينبغي معاقبتها لاستقبالها جماعات من الثوار، أو لاشتراكها في أعمالهم العدوانية»(٢٧).

وبقيت السويداء محاصرة من قبل الثوار. «واستطاعت الحامية أن تتمون بواسطة الطائرات، ولكنها تكبدت بعض الخسائر، فقد نجح الدروز في إطلاق عدد من القذائف على الثكنة التي تمركزت فيها الحامية، وذلك بواسطة المدافع التي استولوا عليها من الطابور الذي مني بالفشل في ٣ آب (أغسطس)»(٢٨).

ولم يفكروا في إنقاذها الا عند وصول النجدات المنتظرة. واحتلت قرية مسيفرة، الواقعة على طريق أسهل من طريق ازرع. وفي ١٤ أيلول (سبتمبر)، تسللت إلى «الجبل» كتيبة طليعية كبيرة. وفي ١٧ منه، ولدى مهاجمة قرية مسيفرة، حاول الدروز، عبثا، ورغم معركة دامية(٢٩)، ايقاف تقدم الكتيبة. وفي ٢٤ منه، وبعد معركة



□ الجنرال ويغان.

قاسية في تل — حديد، انقذت أخيرا حامية السويداء. ولكن النقص في المياه، واقتحامات الدروز، وضرورة تجميع الجند حول دمشق، حتمت، بعد ثلاثة أيام، الجلاء عن السويداء، فعادت الكتيبة إلى قاعدتها في مسيفرة، وبقي «الجبل» غير محتل خلال الأشهر اللاحقة.

وتفجرت، في كل مكان من السهل تقريبا، بؤر عصيان لم تزدها خمس سنوات من الانتداب الا اشتعالا.

وفي غوطة(٣٠) دمشق، وفي الصحراء إلى الشرق، وفي الغرب، في وادي التيم وحرمون، وعلى امتداد المعابر الجبلية المتعرجة، حيث يتربص درزي خلف كل صخرة، وفي كل مكان... لم تلبث الثورة الهادرة، بعنف متصاعد، يوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة، أن تدفقت متجهة شطر الشمال لا تلقى أمامها الا قوى مبعثرة وواهنة وخائرة العزيمة.

وسقطت القرى والضواحي، خارج «الجبل»، بين أيدي الثوار.

وكانت دمشق تترقب، وهي تلهث أمام الأحداث المتسارعة. وباستثناء ستة وضعوا في الإقامة الجبرية، فقد غادر العاصمة رجال حزب



□ قوات الاحتلال الفرنسي في ساحة النجمة بدمشق.

الشعب، المطاردين، والذين أصبحوا مسؤولين عن التمرد، وانضموا إلى صفوف الثوار، حاملين اليهم قيادة سياسية ومعلومات استراتيجية كانت تنقصهم. وكان معظمهم من الضباط القدامى في الجيش التركي، أو من الطلاب القدامى في الجامعات الأوروبية.

وبين عشية وضحاها، طرأ تبديل على الثورة، لقد انتقل مركز قيادتها من «الجبل» إلى الغوطة.

الهوامش

(١) تقرير فرنسا إلى عصبة الأمم للعام ١٩٢٥، ص ١٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩.

(٣) نفس المرجع، ص ٢٠.

(٤) نفس المرجع، ص ٢٣. راجع، بهذا الصدد، منشورات الوفد السوري الفلسطيني إلى جنيف، وخصوصا الكراس الذي صدر بعنوان: **سوريا في عصبة الأمم في عام ١٩٢٥**.

(٥) تقرير عام ١٩٢٥، المذكور، ص ٢٠.

(٦) تقرير النقيب رينو (Reynaud)، ذو الرقم ١٣٥، الذي استشهد به السيد فري (Ferry)، في مجلس النواب الفرنسي (المناقشات النيابية، عام ١٩٢٥، ص ٤٤٤١).

(٧) «وصلت لمقابلة الجنرال فقال لي قبل أن انبس بكلمة: «لقد جمعت، بطريقة جميلة، ثلاثة من دروزكم الذين شاهدتهم واقفين في الممشى ينتظرون، وقلت لهم إنني سأرسلهم، إن لم يعودوا فورا إلى ديارهم، إلى تدمر (الإقامة الجبرية) حيث يقيم الزعيم المسيحي عقلة القطامي»... وفي ٤ أو ٥ تموز (يوليو)، تلقيت من نجيب باشا الحلبي، عميد السن للزعماء الدروز، رسالة مؤرخة في ٢٩ حزيران (يونيو). وفي هذه الرسالة أكد لي مشاعر الولاء التي يكنفها جميع الدروز لفرنسا، وانهم جميعا، باتفاق لا سابق له، يفضلون الموت على تحمل عودة (كاربيه)، ورجاني ان اتدخل للإبقاء على النقيب (رينو)، الذي تفاهموا معه وتعهدوا، من اجل ذلك، بالخضوع والوفاء لفرنسا...» [رسالة شخصية من الأمير فؤاد ارسلان إلى صديق من فرنسا، استشهد بها فري (Ferry)، في المرجع السابق، ص ٤٤٤٢].

(٨) فري (Ferry)، نفس المرجع.

(٩) (L'Echo de Paris)، في ١٩٢٥/٩/٢٩. وبالإضافة إلى تأكيد الجنرال (ساراي) نفسه [راجع رسالته إلى مندوبه في دمشق، التي ورد ذكرها في النص]، فان الشهادة اللاحقة للسيد (Coblentz) في كتابه «صمت ساراي» (Le Silence de Sarrail)، ص ٢٣٤، تؤكد، بصورة مطلقة، صحة الوقائع.

(١٠) فري (Ferry)، المرجع المذكور، ص ٤٤٤١.

(١١) تقرير عام ١٩٢٨، ص ٢٢.

(١٢) «كانت مهمة المقدم (تومي ـــ مارتان) قمع الحركة، دون التعمق في أسبابها، والإعداد، قبل كل شيء، لعودة النقيب (كاربييه)» [فري (Ferry)، المرجع المذكور، ص ٤٤٤٣].

(١٣) «وكتب يقول: ليس هناك أدنى شك. فلو توجه النقيب (كاربييه) إلى السويداء لواجهنا:
١ ـــ هجوما على سيارته في الطريق بين السويداء وازرع.
٢ ـــ تمرد مدينة السويداء.
٣ ـــ انتفاضة جبل الدروز.
وتلك حقيقة. وسأثبتها في التقرير» [فري (Ferry)، المرجع السابق].

(١٤) وهذا هو نص الأمر: «أرجوكم أن تستدعوا المشاغبين إلى دمشق، وبينهم حمد بك، ونسيب بك، ومتعب بك، وعبد الغفار، وسلطان الأطرش، بحجة تسلم مطالبهم. وعندئذ تقولون لهم إنني أعتبرهم المسؤولين عن كل فوضى واحتفظ بهم في الإقامة الجبرية، وفي مكان تعينه لي». الإمضاء: (ساراي) [ذكر ذلك الجنرال بورجوا (Bourgeois) في مجلس الشيوخ الفرنسي. المناقشات النيابية لعام ١٩٢٥، ص ١٧٣٥]. وقد رد المندوب دو لسليه ديه لوج (Deleslé des Loges) على الأمر برسالة مطولة، في ١٢ تموز (يوليو)، جاء فيها: «هذا تدبير لا يتخذ دون أن يكون هناك نوع من الاضطرابات الداخلية، وبعد الإصغاء إلى هؤلاء الأشخاص الذين أتوا يعرضون عليكم، برصانة بالغة، قضيتهم... الذين لا يطلبون الا شرح وجهة نظرهم أمام المفوض السامي، وعند الحاجة بحضور النقيب (كاربييه)، الذين يقولون لكم إنهم تعرضوا لمضايقات، ولكنهم ليسوا جبناء...» [الجنرال (بورجوا)، المرجع المذكور، ص ١٧٣٥].

(١٥) جلسة ١٩٢٥/١٢/٢٠.

(١٦) ويبدو أن ذلك كان رأي اللجنة الدائمة للانتدابات التي ورد في تقريرها إلى مجلس عصبة الأمم، بعد دورة روما (شباط (فبراير) ١٩٢٦)، ما يلي: «ويبدو من الواضح أن أحد أسباب انتفاضة هؤلاء السكان يجب البحث عنه في تجاهل هؤلاء الذين مثلوا فيما بعد دولة الانتداب في جبل الدروز للظروف الخاصة التي حتمت إبرام اتفاق عام ١٩٢١. ويظهر أن أحدهم قد أثقل كاهل الجبليين... في جبل الدروز بسلطته القاسية للغاية، بدلاً من توفير الحكم الذاتي والحرية لهم، بعد الاعتراف لهم بهذا الامتياز. ان اللجنة قد تأثرت، بشكل خاص، بقصة الاستياء المتصاعد، والتحذيرات المتكررة والمتجاهلة، وعناد الجنرال (ساراي) المتفاقم أكثر فأكثر، والذي أدى، بعد الطرد القاسي لوفد درزي جديد، إلى اعتقال... وفد من الوجهاء استدعي (بحجة تسلم مطالبه)...».

(١٧) (L'Echo de Paris) في ١٩٢٥/٩/٢٩.

(١٨) وهو النظام الأساسي الذي نصت عليه المادة الأولى من «إعلان الانتداب» الصادر عن عصبة الأمم في ١٩٢٢/٧/٢٤ [راجع، بهذا الصدد، كتاب المؤلف: **«التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري»** منشورات الجامعة اللبنانية. بيروت، ١٩٧٣، ص ٣٣٢ وما يليها].

(١٩) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٢٤. والجنرال جيرو (Girod) يسرد تفاصيلها المأساوية في خطابه أمام المجلس النيابي [المناقشات النيابية. مجلس النواب. الجزء الخامس، ص ٤٥٠٣]. راجع كذلك (فري)، المرجع المذكور، ص ٤٤٤٥.

(٢٠) برقية الجنرال (ساراي) في ٢٥ تموز (يوليو)، في باريس (فري، المرجع المذكور، ص ٤٤٤٥).

(٢١) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٢٤.

(٢٢) حول تشكيل طابور (ميشو) وتنبؤات المقدم أوجاك (Aujac)، راجع (Ch. Desjardins) [مناقشات مجلس النواب لعام ١٩٢٥، الجزء الخامس، ص ٤٥٠٨ وما يليها]. وقد وصل تقرير (أوجاك) إلى الجنرال (ساراي) فأحاله على قيادة أركانه للدراسة والمشورة، ولكن التقرير لم يبلغها الا بعد فترة طويلة. ولعل هذا التأخر هو سبب الفشل في ٣ آب (أغسطس) [راجع (جيرو)، المرجع المذكور، ص ٤٥٠٤] ويبدو أن أقرب المساعدين للجنرال قد خانوه [حسب رواية (Bonardi)، المرجع المذكور، ص ٨٥. راجع كذلك (Colbentz)، المرجع المذكور، ص ٢٤٧].

(٢٣) (Desjardins)، المرجع المذكور، ص ٤٥١١.

(٢٤) قتل ٢٨ ضابطا، وجرح ٢٨ ضابطا، وقتل ٦١٢ جنديا، من بينهم ١٢٢ فرنسيا [جيرو، المرجع المذكور، ص ٤٥٠٣]. وأعلن وزير الحرب (P.Painlevé)، فوق منصة مجلس الشيوخ، أن السوريين من أفراد الفرقة الأجنبية قد تسببوا، بفرارهم الهائم، في حدوث الهزيمة الفرنسية. ورد (Desjardins)، في مجلس النواب، على هذا التبرير بقوله: «إنني أحتج، يا سيدي الوزير، على الحكم، البائس حقا، الذي أصدرته عليهم من منصة مجلس الشيوخ، في اليوم الفائت، عندما قلت أن هؤلاء الناس كانوا مدربين وراثيا على الخوف من الدروز، وكانت لديهم بالتالي موهبة خاصة في فن الهرولة. وإذا كان السوريون قد فروا في ذلك اليوم فلأنهم كانوا واحدا مقابل عشرة. وقد شعروا بدعم سيء، وبأنهم قد خذلوا، لأنهم كانوا يعرفون أن الجنرال كان في المقدمة، محميا، في سيارة مصفحة» [المناقشات النيابية، المرجع المذكور، ص ٤٥١١، وما يليها]. ان السوريين، الملتصقين بمدافعهم، والموضوعين في مواجهة خط النار، كانوا يتلقون جميع الطلقات من جانب أشقائهم في العرق. ولمساندتهم، كان الملغاشيون، وراءهم، ينبطحون كالمخبولين تحت رشقات النار. وعلى مسافة قريبة، كان تشتت الرؤساء. وتابع الخطيب (Desjardins) كلامه قائلا: «لقد نسيت، يا سيدي وزير الحرب، ما فعلوه في ساحات الوغى الفرنسية أثناء الحرب الكبرى». وسيذكره مجاهدو دمشق بذلك.

(٢٥) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٢٥.

(٢٦) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٢٦.

(٢٧) التقرير المؤقت لعام ١٩٢٥، ص ١٨.

(٢٨) المرجع السابق، ص ١٥.

(٢٩) ربما كانت معركة **مسيفرة** ـــ إذا استثنينا كارثة طابور (ميشو) ـــ الفصل الأكثر دموية من الثورة. والأرقام الرسمية تشير إلى سقوط ٤٧ قتيلا و ٨٣ جريحا من الجانب الفرنسي، و ٣٠٠ قتيل من الجانب الدرزي [التقرير المؤقت لعام ١٩٢٥، ص ١٩]. ولكن الأرقام المتعلقة بالخسائر الفرنسية هي أقل من الأرقام الحقيقية [راجع رواية شاهد عيان في مجلة (Le Phénixe) القاهرية، الصادرة في ١٩٢٦/١/٧، ص ٥٣].

(٣٠) الغوطة (ومعناها، بالعربية، العمق) هي حدائق تحيط بدمشق ويصعب التسلل إليها، استخدمها الثوار، لمدة عامين، كملجأ لهم ومركز لنشاطهم.

*** دراسة نشرت في «المجلة التاريخية» (Revue Historique) في عددها الثاني لعام ١٩٨٢.**



تصريحات وأقوال

■ علينا باستعمال القوة مع العرب، لأن معاملتهم بالطريقة الديمقراطية الأوروبية لا تتلاءم مع واقعهم الشرقي.. هناك العديد من مخيمات اللاجئين.. ماذا سيحدث إن أضفنا إليها مخيمن أو ثلاثة.

(مراسل ها آرتس ـــ تسفي باريل ـــ على لسان عضو مستوطنة حول القدس)

■ تستخدم إسرائيل المساعدات الاقتصادية الأمريكية في منح مستوطنيها في الضفة الغربية قروضاً طويلة الأجل ذات فوائد منخفضة.. [٣١٠٠ مليون دولار تطلبها إسرائيل كمساعدات للسنة المالية ١٩٨٣/١٩٨٤م].

(السناتور مارك هاتفيلد ـــ رئيس لجنة المخصصات في مجلس الشيوخ الأمريكي)

■ إن الولايات المتحدة لا تريد حرمان إسرائيل ثمار انتصارها العسكري في لبنان.. هناك اختلافات بيننا ولكن يجب أن نناقشها بصفتنا حلفاء وألّا ندع الغضب والعواطف تطغى على أحكامنا..

(صموئيل لويس ـــ السفير الأمريكي في إسرائيل)

■ ... بارك هنري كيسنجر والسيدة كير كباتريك الغزو الإسرائيلي على أساس أنه سيعمل على تعزيز المصالح الأمريكية على كافة الجبهات..

(جيمس ايكنز ـــ السفير الأمريكي الأسبق في السعودية)